السحر والعلاقات الزوجية في المجتمعات الريفية
دراسة أنثروبولوجية في بعض قرى محافظة الدقهلية بمصر

محمد أحمد غنيم

جامعة المنصورة

مقدمة حول السحر والتفكير الغيبي

منذ فجر التاريخ كانت هناك محاولات الإنسان القديم للنفاذ إلى مكنونات الغوامض التي واجهه بها ذلك العالم، لاكتفاء شر ما أيقن أنه تربص به وراء تلك الحجب من قوى فوق-طبيعية، بل ومحاولة الانتقال من مرحلة استرضائها ومنع أذاها إلى مرحلة ضمها فلى صفه، لتكون له لا عليه.

ومن المسعى الأول نشأ السحر ومن المسعى الثانى، نشأت الكهانة. فبدأ السحر والدين كتوأمين، الا أن انفصالهما، بل والعداء الذي لامهادنة فيه بينهما، كان محتوما منذ البداية. ولقد كان الرحم الذي ولد التوأمان منه رحما مركبا من خوف الإنسان وفضوله، ونزوعه إلى القوة وسعيه إلى تأمين بقائه وإشباع حاجاته.

فتحت تأثير تلك الدوافع، سعى الإنسان من أقدم العصور، سعيا حثيثا، وبإصرار كان من العوامل التي جعلته يتسيد على غيره من مخلوقات، إلى أدوات تمكنه من فرض نوع من التحكم على ظواهر الطبيعيه يجعلها تعمل لصالحه، وتتيح له في الوقت ذاته التعامل مع القوى الخفية التي آمن بوجودها وراء الظواهر المرئية (مقار ١٩٩٠: ٢١).

فالسحر تعبير عن الغرور الإنساني، اذ يجسد اعتقاد الإنسان بأنه قادر، بجهده الخاص، على التحكم في ظواهر الطبيعة، وهى ظواهر يشارك السحر توأمه الدين في الاعتقاد بمرونتها وقابليتها للتحكم والتعديل. وبالمقابل يعبر الدين عن التواضع الإنسانى، اذ يجسد اعتقاد الإنسان بأنه أضعف وأضأل شأنا من أن يتحكم في ظواهر الطبيعة أو يستغل مرونتها وقابليتها للتحك والتعديل، لصالحه بجهده الخاص، وهو اعتقاد يجعله يتنصل من غرور السحر والاكتفاء بمحاولة الوصول إلى القوى العليا بالصلاة والشعائر والطقوس واسترضائها كيما تتحكم تلك القوى لحسابه في ظواهر الطبيعة وتكف عنه أذى القوى الخفية الشريرة التي يصبح بها العالم غير مرئى (بوزنر ١٩٩٦: ١٨٦).

ويوقفنا العلم — على أساس من كشوف علمي الآثار والأنثربولوجيا — أنه لا سبيل اليوم إلى الادعاء بأنه قد وجد في أى وقت أى مجتمع إنساني لم يتحدث لنفسه تنويعاته الخاصة على السميات الأسطورية المشتركة للنوع البشري ليمارسها كشعائر وطقوس، ويصنع منها رؤية للعالم وموضعه فيه تطمئن أفراده. ويضع صياغات يراها كفيلة بتأمين بقاء الجماعة التي يتألف منها طبقا لما يذوده به سحرته وكهنته ومتنبئه من صياغات مستمدة من ذلك التراث الأسطوري (لين ١٩٧٥: ٢٣٢، ٢٣٣).

والواقع أن تاريخ نوعنا البشري لم يكن في أى وقت، منذ صفحاته الأولى مجرد مسار تقدم نجم من اختراع عدد وأدوات من حجارة أو برونز أو حديد بقدر ما ظل تاريخا لاندفاع فيض لم ينقطع من رؤى متوهجة في أدمغة المتنبئين وأصحاب الرؤى ظلت الجماعات البشرية المختلفة يجسده في وجودها الأرضي باعتبار وجودها ذاك تحققا لعهود ومواثيق أبرمت في السماء لتنفذ على الأرض. وبذلك الاعتقاد المريح، أمكن للجماعات البشرية أن يطمئن إلى أنها قد تلقت خاتم التصديق الخاص بها من قوى ما وراء الطبيعة، وأنها — بذلك — قد اختارتها تلك القوى للقيام بدور معين على الأرض أعمالا لمخطط وضعته السماء متضمنا مصيرا محددا للجماعة البشرية المختارة للقيام بذلك الدور.

THE ARABIST. BUDAPEST STUDIES IN ARABIC 21–22 (1999)
https://doi.org/10.58513/ARABIST.1999.21-22.12

فالإنسان قد أفصح دائما عن أنه غير قادر على أن يصلب عوده في مواجهة الكون ما لم يطمئن إلى فعالية نمطه الأسطوري الخاص به الذي يصوغ فيه التراث الأسطوري المشترك للنوع البشري كله صياغة تلائمه، ويعيد ترتيب مكونات ذلك التراث بشكل يكفل تحقيق تطلعاته (مدكور ١٩٧٥: ٣١٢).

وفي كل المجتمعات المستقرة التي أوجدتها الحضارات المتقدمة في العالم القديم — نتيجة للتطور التقني الذي مرت به شعوب تلك الحضارات في مصر، وأرض الرافدين، وكنعان، فيما بين ٣٥٠٠، ٢٥٠٠ ق. م. — أن ذلك التطور وما ترتب عليه من تعقد وتقدم للبنيان الاجتماعي، حول الكهنة من مجرد خدام للمعابد ومرتلي تعاويذ، إلى طبقة "مهنية" قوية ومميزة صعدت بسرعة فاحتلت مكانة رفيعة في قمة الهرم الاجتماعي، في ظل الطبقة الحاكمة أولا، ثم بجوارها. وقبل أن ينقضي وقت طويل، كانت تلك الطبقة الكهنوتية قد استوعبت تماما الطبقة الحاكمة وذات الملك أو الفرعون كاهنا أعلى فيها، فبات الكهنة سلطة عليا في المجتمعات، إن لم يكن بالجلوس الفعلي على العروش، فبالتحكم "روحيا" وسحريا في شؤون الحكم. وفي غمار ذلك الاجتهاد، لم يتخل الكهنة، بطبيعة الحال، عن ممارسة الوظيفة االسحرية الأصلية في حرفتهم الكهنوتية. وكان لديهم كل الحق في ذلك. فتلك وظيفة بالغة الفاعلية لم يتخل عنها وخاصة في إضفاء طابع روحاني على آلهه الشعب القديمة، واغناء المعتقدات التي وجودها شائعة في بعض الأزمنة القديمة بمضامين أخلاقية فجعلوا الاله أكثر شخصانيه، ولكن بمعنى روحاني غير قابل لأن ينتقص في تماثيل خشبية أو يجسد في تماثيل حجرية مهما كانت صنعتها بارعة ومزوقة، وجعلوه بذلك وحيدا فريدا لامجرد اله آخر وظهر شراء الإيمان بالوعيد والوعود السحرية وفي التوراه في سفر الخروج بالذات، نجد هذه الوظيفة السحرية واضحة. وضوحا لا يضارعه الا ما نجده في العبادات الشامانية (shamanist) التي يتخذها الكاهن فيها دور كاشف حجب الغيب ومداوي أمراض القبلية والمتصل لحساب أفرادها بأرواح الأسلاف والمعبودات ومانع أذى الأبالسة والشياطين عنهم (نخبة د.ت.: ٢٧٥).

ولقد عقدت مباراة بين النبي موسى عليه السلام وسحره فرعون، فدمرهم بسبب خداعهم بأن ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ابتلع كل ثعابينهم، فخروا له ساجدين. وما أسرار المقابر الملكية المروعة، وقصص الخوارق ما هي إلا تأويلات متناقضة، ورغم رسوخ الاعتقاد بحلول لعنة الفراعنة على منتهكى حرمة المقابر. جعلت كل هذه الأمور مصر القديمة دولة السحر. والحقيقة أن السحر كان يحكم في أرض الفراعيين، وليست الأسطورة التي أسكنت وادى النيل بالسحرة خطأ، والبرهان على هذا سهل ميسر: فقول القصص الشعبية والتمائم وتلك التعاويذ المكتوبة التي تملأ خزائن المتاحف. على أن السحر قد جاء واستقر في أرض السحرة. ويوجد السحر في كافة المجتمعات كعنصر اجتماعي. ومن الخطأ أن نتكلم عنه فيما يختص بمصر وحدها، غير أنه من الممكن أن نذكر مبدأين من مبادئه الأساسية، وكلاهما قائم على فكرة وجود تجاذب خفي بين الأصوات المتشابهة أو فيما بين الأجسام المتشابهة (سليم ١٩٨١)[١].

كان السحر أولا وقبل كل شيء إيمانا مطلقا بالقوة الخلاقة للصوت. ولم يعتبر الشخص البدائى اسم الكائن الحى أو الجسم وسيلة عملية لتسهيل تبادل الآراء بين الناس، بل اعتبره الكائن الحى أو الشيء نفسه فبمجرد النطق باسم، كان يخلق ذلك المخلوق أو الشيء. وتزخر قصص الخليقة بفقرات تنص على أنه ما على الخالق الا أن "ينطق" باسم كل عنصر من مكونات الخلق حتى يبادر ذلك العنصر في الحال بأن يأخذ مكانه المعين له. والمبدأ الثاني أو الظاهرة الثانية في السحر المصري، هو القوة الخلاقة للتمثال. فكما أن النطق باسم اله ما، كان يأتي به في حضرة الإنسان، كذلك كان صنع تمثال أو عمل صورة لرجل أو لشيء، ينقل إلى ذلك التمثال الجديد أو الصورة جزءا

---

١ انظر المصطلحات: Magic, Rites, Witchcraft, Sorcery, Formula.

من الشخصية الروحية لذلك الرجل أو الشيء وهناك وجهة نظر أخرى تقول بأنه كان يمد الإنسان بوسيلة للسيطرة على ذلك الرجل أو الشيء. وتدخل جميع الطقوس السحرية التي استخدمت التعاويذ والصيغ في نطاق المبدأ الأول من هذين المبدأين. ويشتمل المبدأ الثاني على كل محاولة لتمثيل "الحقيقة" أو الكائنات باستخدام الصور والتماثيل، فاستعمل هذا المبدأ في عدة أغراض، منها حصول الشخص الميت على مائدة زاخرة بالأطعمة أو لدرء الخطر، وقت الحاجة بتحطيم تمثال العدو (فريزر ١٩٧١).

الآن وقد عرفنا هذين المبدأين فلننظر في كيفية استخدام السحر المصري: استخدام السحر لحماية المخلوقات البشرية، وفي بعض الأحيان، لحماية الآلهة. وفي أغلب الأحوال، كانت استعمالاته دفاعية فحسب "أعطى الرب البشر السحر كسلاح ضد الشدائد وعاديات الدهر"، فاستعملت الطلاسم للأغراض الدفاعية وكانت على هيئة قائم لحماية الجسد من الأذى. يفسر هذا الاعتقاد وذيوع استعمال الرقى في الطب. فلكل مرض أعراضه الطبيعية وعلاجه المناسب. بيد أنه من الممكن أن يوجد خلف هذا المظهر الطبيعي الواضح الأثر سبب غير مادي نتيجة مشيئة ما معادية.

وربما كانت هذه مشيئة إله أو شيطان أو شبح أو روح شريرة أو جني شرير فيما يصف الطبيب العقاقير المسكنة للألم، يهاجم الساحر سبب المرض. وتحت تصرف الساحر عدة وسائل يعرفها علماء النفس. منها النقل ويتلخص في وضع حيوان قرب الشخص المريض، وتلاوة بعض التعاويذ، فتخرج الروح الشريرة وتدخل جسم الحيوان.

والتقمص: فيدعى الساحر أنه إله ما، ليأمر الروح الشريرة، أو ليذكرها بأنه لا سلطان لها على المريض. وتحتوي النصوص الدينية على عدة فقرات طويلة من هذا النوع الأخير، يشبه فيها كل جزء من جسم الإنسان بإله حتى لا يمتد اليه أى أثر خبيث. وفي بعض المناسبات كان يستخدم التهديدات التي ربما كانت امتدادا للفكرة السابقة، فيصل مصير الشخص المريض بمصير الكون "إذا لم يشف هذا المريض، فستقع السماء فوق الأرض، ولن تشرق الشمس بعد ذلك" إلى غير ذلك من الوعيد.

ويتضمن التهديد بهذه الكارثة أن يهلك الشخص المسئول عن ذلك المرض أو الإله الذي بوسعه أن يطرده ويتقاعس عن إنقاذه.

وهناك أغراض أخرى لهذا السحر الدفاعي، منها: تهدئة مخاوف الناس من أن تعود تماثيل معينة إلى الحياة في أية لحظة.

فتقطع أوصال جميع الحيوانات المستعملة كرموز هيروغليفية إذا كتبت في نصوص الأهرام مثلا. وتنتزع أجزاء من أجسام الأسود والأفاعي والعقارب حتى تعتبر عديمة الأذى. وكثيرا ما كانوا يثقبون صور المخلوقات المعادية، بالسهام أو بالسكاكين حتى تغدو أشبه بحامل الدبابيس. فإن طرأ على بالها فكرة خاطئة لكى تعود إلى الحياة، أرجعتها هذه العملية إلى صوابها (اسماعيل ١٩٨٥: ١١٤).

إن الأثنوجرافيين في أبحاثهم التي قاموا بها منذ نهاية القرن التاسع عشر ذهبوا إلى أن لكل شعب من الشعوب نسق من التفكير الغيبي المرتبط أساسا بالكائنات الخارقة أو الكائنات الاعتقادية من أرواح وأشباح وجن... وقد انعكس هذا بوضوح في معتقداتهم حول السحر والخرافة والعين الشريرة، وعلى حد تعبير (Barnouw 1982: II, 211) إن كثير من الناس في أمريكا وأوربا والاتحاد السوفيتي أو مناطق أخرى لا يعتقدون في الآلهة أو الأرواح أو حتى في الحياة بعد الموت لكن يعتقدون في مثل هذه الكائنات الخارقة (Plog & Bates 1976: 116-117) كما يذكر Serena Nanda (1984) أن كل شعب من الشعوب لديه نسق إدراكي كلي يرتبط أساسا برؤية العالم، طبيعة الحياة والموت، خلق العالم، أمل الكون، علاقات الأفراد والجماعات بعضهم ببعض، علاقات البشر بالطبيعة. وفي غياب الفهم الكامل للناس عن أنفسهم والعالم المحيط بهم، فإن البشر يخلق صورة للواقع مأهولة بالقوى الخارقة أو الكائنات الاعتقادية، هذه الصورة تخدم كإطار لتفسير الأحداث والخبرات خاصة

تلك التي تخرج عن نطاق المألوف، لأن البشر لا يبحثون إلا في حدود قدراتهم العقلية أو في حدود فهمهم للعلاقات القائمة أو الممكنة، إن الاعتقاد بالقوى الخارقة والممارسة المرتبطة بها تنشأ كطريقة لفرض النظام على الكون الأمر الذي يعطي البشر شعورا بأن لديهم مقياس ما للإدراك والفهم.

ولا شك أن معالجة نسق التفكير الغيبي من الأهمية بمكان نظرا لأهمية الدور الذي يلعبه هذا النوع من التفكير في حياة الشعوب والجماعات، بل أن النظرة الواعية المتأنية يمكن أن تدرك أن تاثيره يمتد إلى جميع الانساق والنظر الاجتماعية والثقافية، بل أن أكثر الأفراد موضوعية وعقلانية لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن هذا النوع من التفكير إنه وثيق الصلة بالكائنات أو القوى أو الأماكن الاعتقادية أو الأسطورية. والأكثر من ذلك أن المعتقدات الدينية تدعم هذا النوع من التفكير وإن اختلفت الأديان والمعتقدات في ذلك وسوف نقصر دراستنا هنا على موضوع السحر والعلاقات الزوجية كمثال لمثل هذا النوع من التفكير الغيبي والذي يعتقد فيه الأفراد دون مناقشة أو تمحيص ليصبح بمثابة أفكار عامة مستقرة لا يتطرق إليها الشك، أمور مسلم بها قد لا تخضع للتجريب، وحتى إذا ما جاءت التجربة الذاتية للفرد غير مواتية فإن تجارب الآخرين الذين يمثلون الغالبية لن تحول دون الاعتقاد فيه واللجوء اليه إذا ما كانت هناك حاجة ماسة لتصبح بمثابة نوع من الصور النمطية Stereotypes (Plog & Bates 1976: 116-117).

ويقول Bidney (1953: 158) إن مالينوفسكي أشار إلى Fraser في تفسيره للسحر البدائي على أنه "علم زائف" وأنه من الأفضل أن يتذكر ذلك الآن في اتفاقنا مع ما ذهب إليه تايلور (Taylor) الذي أكد أن السحر والأسطورة إنما يشرحاه في مفاهيم عقلانية.

إن الأساطير تفسر كما لو كانت أبنية عقلانية يحث عليها الاستفهام العلمي إن الانيميزم وفقا لتايلور نظرية منطقية تقدم تفسيرا معقولا للموت بالقياس إلى النوم والأحلام.

إن الإنسان يتصرف عمليا وعقلانيا في خبرته وممارساته اليومية، لكنه يتصرف على نحو عاطفي وانفعالي عند الأزمات الاجتماعية والفردية أو عندما تكون معرفته العقلانية قاصرة أو تبرهن على عدم كفاءتها (أحمد وآخرون ١٩٨٤: ١٩٥).

وإلا بم تفسر تكالب جمهرة من المتعلمين نالوا قسطا لا بأس به من التعليم وعلى دراية بالمنهج العلمي واستغرقوا في التفكير الغيبي؟

تماما كما نقول أن مفهوم الأسطورة نسبي لمن يعتقد فيها ويقتنع بها لدرجة ما نعتبره حقيقة إنجيليه (Gospel) للمعتقد مجرد أسطورة أو قصة أو خيال لغير المعتقد أو على الأقل أمرا مشكوكا فيه (اسماعيل د. ت. : ١١) قارن بين نظرة الماركسي للمعتقدات الدينية وأحد المعتقدين في الديانات العظمى، فالمؤمن بالزرادشتية مثلا يؤمن بالسحر والشياطين إلى حد بعيد وما ذلك إلا لأن كتابهم المقدس "سفر الفانديداد" (القانون المضاد للشياطين) قد أوصاهم بذلك (الجوهري ١٩٩٠: ٢٢٤).

لا شك أن ليفي بريل (Levy-Bruhl 1927) حين تحدث عن العقلية البدائية حاول أن يتناول طبيعة الفكر البدائي، وقدم مساهمات قيمة للأنثربولوجيين وخاصة فكرته عن اختلاف التفكير البدائي عن التفكير المتحضر في الدرجة والنوع ووسم العقلية البدائية "غير منطقية" وقد سار على هذا النهج أيضا Pareto حين ذهب إلى أنها غير منطقية. والجدير بالذكر أن ليفي بريل عاد في أخريات حياته عام ١٩٤٩ وعدل عن أفكاره تلك مؤكدا أن نظريته عن العقلية البدائية خاطئة وأن البناء المنطقي للعقل البشري واحد (الجوهري ١٩٩٠: ٢٢٤).

منهجية الدراسة

لا شك أن معالجة موضوع التفكير الغيبي وخاصة ما ارتبط به من الاعتقاد في السحر، يحتم علينا أن ننهج نهجا بنائيا وظيفيا ذو نظرة شاملة، فليس المهم هنا أن نجمع أكبر قدر من المادة

الأثنوجرافية وثيقة الصلة بالسحر، وإنما ربط السحر بإنساق التفكير الأخرى للكشف عن ارتباطاته بالعلاقات الزواجية في مجتمع البحث والكشف عن نسق التفكير الذي يكمن وراء الظاهرة الملاحظة. وإذا ما أردنا الوقوف على طبيعة التفكير الغيبي وأسلوب الإدراك للمفاهيم والمبادئ والقيم الكامنة وراء هذا التفكير فلا بد لنا أن نحاول التعرف على نسق التفكير من خلال الناس أنفسهم ومن ثم فإن الاعتماد على الملاحظة العلمية (الطوخي ١٩٩١: ٣٧، ٣٢٩).

ولم نذكر هنا الملاحظة بالمشاركة لأن الباحث الأثنوجرافي المتدرب قد يقوم بدراسة للممارسات السحرية ولكنه لا ينبغي أن يشارك في مثل هذه الممارسات، إذا فعل ذلك انتفى كونه باحثا، ولنذكر دوما أن ليس مهمة الباحث الأثنوجرافي أن يقوم بدور الممثل المشارك على هذا النحو = التي اعتاد عليها الأنثروبولوجيين في كل مكان لا يفى بالغرض، إن الملاحظة قد تكون قاصرة لأنها سوف تذودنا حتما بما يتصوره الباحث نفسه، ومن هنا كان لزاما علينا أن نعتمد على عدد من الطرق والأساليب المنهجية الأخرى التي تفى بالغرض لعل من أهمها المقابلة والمقابلة المفتوحة التي يعول عليها في الدراسات الأنثروبولوجية إلى حد بعيد. يقول Bates إنها تكشف عن الكثير من الجوانب الهامة في البحث الأثنوجرافي.

والمقابلة هنا على درجة بالغة من الأهمية لمراجعة المادة المستوحاة من الملاحظة من ناحية ولاستشاره الإخباريون والتغلب على أحجامهم عن مناقشة مثل تلك الموضوعات التي تتعلق بالسحر وخاصة عند الحديث عن العلاقات الجنسية مثلا وعدم رغبة المبحوثين في الخوض في مثل هذا النوع من الموضوعات. هنا فإن دور الباحث في المقابلة متابعة الأفكار واستشارة الإخباري ليتحدث في تلقائية ودون تردد أو خوف ولنذكر أننا هنا بصدد أسئلة غير مقننة باستثناء بعض الأسئلة التي توجه المبحوثين إلى الآراء والمعتقدات التي تدور حول هذا الموضوع أو ذاك وبالتالي فالمقابلة من أكثر وسائل الحصول على البيانات شيوعا ويتوقف نجاحها على مستوى التخطيط لها من جهة، وعلى الكيفية التي تتبع في تسجيل المعلومات والبيانات التي تسفر عنها المقابلة من جهة أخرى كما يمكن عن طريق المقابلة جمع البيانات وجها لوجه مع المبحوث والتعرف على صورة النفس البشرية (الطوخي ١٩٩٢: ٨٥، ٨٧—٨٩، ٩١).

وأيا كان الأمر فإن المقابلة أداة مرنة للبحث مكنت الباحث من الاتصال الشخصي المرتبط بالتفاعل بين الباحث والإخباري الأمر التي أتاح لنا الحصول على مادة أثنوجرافية وفيرة خاصة ما تعلق بمفاهيم السحر واستخدامه في العلاقات الزوجية ومدى اللجوء إلى الممارسات السحرية ودور الساحر وطبيعة المشكلات المرتبطة (الزواج — التعدد — الطلاق — العقم — الفشل في الحب — الكراهية إلخ...) وهكذا نجد أن الملاحظة والمقابلة أوجه متصلة من الخبرة الحقلية فإذا كانت الملاحظة المباشرة يمكن اعتبارها وسيلة لجمع المادة في سياقها الطبيعي حيث الأحداث والوقائع تتوالى في التو واللحظة وبالتالي جمع المادة المتاحة في سياقها الطبيعي ولكن في أحيان أخرى يصعب جمع المادة على هذا النحو من هنا كان اعتمادنا على المقابلة المفتوحة للحصول على معلومات قد حدثت بالفعل ويصعب رؤيتها الآن أو توقع حدوثها مع إمكانية ملاحظة الباحث لها (مغاوري ١٩٩٥: ١٠).

أما مجتمع الدراسة: فكان مجموعة من القرى بمحافظة الدقهلية بها مجموعة من ممارسي مهنة السحر وهذه القرى هى قرية "ديمشلت" وقرية "كفر الباز" وقرية "العزازنة" مركز دكرنس وقرية "كفر الحطبة" مركز شربين وقريتي "ميت مزاح وطناح" مركز المنصورة و"كفر الأعجر".

وقد كانت هناك عدة صعوبات قد واجهت الباحث منها:

١ — تخوف البعض من ذكر الدافع الأساسي للتردد على المشتغلين بالسحر.

٢ — صعوبة جمع البيانات في المجتمع الريفي لعدم توفر الوعى بين الأفراد بأهمية الموضوع.

٣ — صعوبة إقناع الساحر بأهداف البحث العلمي المتجرد وخشية ذلك الساحر بإفشاء أسراره المهنية التي يرتزق منها وخوفه من ملاحقة الشرطة له واتهامه بالدجل والشعوذة ومحاربته.

٤ — رفض الإخباريين رفضا قاطعا للتصوير أثناء الممارسة السحرية.

وقد أمكن التغلب على بعض هذه الصعوبات بالإقناع وكسب ثقة الإخباريين وعن طريق بعض المعارف بالقرية الموثوق بهم تجاه الساحر نفسه وبعض الطلاب أبناء القرية الذين كانوا يسهلون عملية المقابلة. وبطريقة جعلت تردد الباحث على الإخباريين بطريقة منتظمة طوال ستة أشهر بدأت في يناير ١٩٩٦ انتهت في يونيو ١٩٩٦.

السحر والعلاقات الزوجية في مجتمع الدراسة

والملاحظ أنه لا يخلو كتاب عن السحر إلا إذا اهتم بموضوع الحب كمحور من محاور الممارسة السحرية (الاحترافية أو الشعبية) وتطلق مثل هذه الكتب على أنواع العواطف التي يعالجها الحب والوجدان والعشق والتهيج... إلخ غير أن الوصفات لا تسير في خط واحد دائما أى انها لا تستهدف فقط إيقاع شخص في غرام الآخر، وإنما يمكن أن يتجه شخص إلى الساحر المحترف لكى يتخلص من وجد يحس به تجاه امرأة معينة، ويلتمس لديه خلاصا من حب يشقيه أو ينهك صحته وسعادته ومن أجل هؤلاء كتب (البوني) مثلا وصفة "لمن أضره العشق والمحبة والهيام إلى شخص وخشى الفضيحة من الناس أو بين أهله" ولا عجب في هذا لأننا نعرف أن المعتقد الشعبي يفسر الحب الشديد (الهيام) والغيرة بأنهما من فعل الجان (فلان سبى فلانة والعكس) بينما يفسر المعتقد السحري الرسمي بأنه راجع إلى تأثير عمل سحري معين بالمحبة، ولا يعالج هذا الهيام إلا عن طريق فك العمل. ولذلك تسارع النساء من أهل الفتاة التي تهيم حبا بأحد الأشخاص إلى الساحر المحترف لكى يفك العمل المعمول لها بمحبة هذا الشخص، تدفعهم إلى ذلك غيرتهن على شرف الأسرة وسمعة الفتاة (أبو الفداء ١٩٩٤: ٢٩، ٣٠).

ويرتبط بقضية الحب والعاطف تلك الوصفات التي تهدف إلى شل قدرة الرجل الجنسية أو جعل المرأة غير قادرة على الحمل فنجد أن "البوني" يورد أحد الأسماء الحسنى الذي لا يحمل المرأة ما دامت ترددها. كما أن هناك اسما آخر فيه سر لطيف لمن أراد عقم رجل أو امرأة عن الأولاد فمن كتب أحد الطلاسم على قطعة من أثر المراد به ذلك وذكر عليها الاسم ثلاثة عشر ألف مرة ثم وضعها في أنبوبة قصب فارس وجعلها في مكان مظلم. فتصبح المرأة والرجل عاقما.

وبرغم الانتشار الواسع للاعتقاد في هذه الممارسة بالطبع عقد الرجل أو ربطه أى دون المرأة في الريف المصري فإن (دوتيه) قد لاحظ بالنسبة للمغرب مثلا أنه من الصعب في شمال أفريقيا الحصول من أحد السحرة على كيفية عقد رجل وذلك لأنهم يخافون عذاب الله إن فعلوا ذلك لأنه أمر مكروه كراهية شديدة.

وقد لاحظ (دوتيه) أن غرض العقد أو الربط لا يستخدم إلا في حالة الأزواج الشبان فقط لأسباب الغيرة وخلافه ولهذا السبب يؤكد "البوني" أن وصفات الرجل أو عقد الرجل لا يصح أن يستخدم إلا في حالة الزاني فقط أما الغرض المقابل وهو الأكثر انتشارا أو الأكثر إلحاحا فهو علاج المرأة العاقر وتمكينها من الحمل والإنجاب.

غير أن الأمر لا يقتصر على دائرة الجنس والإنجاب فحسب ولكنه يمتد إلى نطاق أوسع ليعالج العلاقات بين الرجل وزوجته فيصلح من شأنها ويجعل المرأة أكثر طاعة لزوجها وتجعله هو أكثر رأفة بها ورحمة لها... إلخ ويقول "البوني" عن أحد الوصفات "من كتبه وسقاه لزوجته" لم تفعل ما يكرهه بعد ذلك كذلك توجد عديد من الوصفات لتقوية الجنس عند الرجل وتمكينه من أداء واجباته في هذا الصدد بكفاءة عادية (البوني: د. ت. ١٢٠).

أنواع الرباط الخاصة بالرجل

ومن أنواع الرباط نجد أنه يقسم إلى الآتي:

ربط الظهر: وهذا النوع من أنواع الربط جديد من نوعه فقد أخذ لونا غريبا غير المعتاد حيث أن المريض يشعر بألم في نهاية العمود الفقرى عند الاقتراب من الزوجة علما بأنه في باقي الأوقات لا يشعر بهذا الألم وعند الفحص الطبي يثبت الطب أنه لا يوجد شيء وقد يصاحب ألم الظهر كسل في جميع أعضاء الجسم أو صداع شديد والذي يجعل هذا النوع من الربط غريبا أن القضيب وهو عضو الجماع يكون في غاية الانتصاب بل ومن السهل جدا القذف ولكن هذا الألم الذي يوجد في نهاية الظهر تكون قصته أن الساحر يصنع سحرا من النوع المدفون أو المكتوب ويعلقه على الجماع فلا يكون نفاذ أمر السحر إلا عند الجماع وعندما يأتي المعالج لقراءة الرقية لا يشعر المريض إلا بهيام بسيط جدا في الرأس عند قراءة آيات السحر وعند الانتهاء من الجلسة وإتمام المسائل المتبعة لفك الربط نجد أن الشخص يقول لم أشعر بأي تحسن وعلاج تلك الحالة بأمر المولى عز وجل تحتاج إلى ثلاثة أشياء وهي:

أ — إيقاف عمل السحر

ب — إصلاح ما أتلفه السحر

ج — التحصين.

وسوف نتكلم عن ذلك تباعا.

ربط القضيب: هذا النوع من الربط هو أكثر الأنواع شيوعا في مصر بل وفي العراق وايران والكويت وبعض أنحاء اليمن وقد تم معرفة علاجه حتى نقول أن أى معالج بالقرآن الكريم يستطيع أن يعالج هذا الأمر بسهولة.

ربط الفكرة: بالطبع هذا النوع من أعجب وأغرب أنواع الربط بالإضافة إلى أنه قد شق طريقة في عصرنا هذا وأخذ في الانتشار وغالبا ما يكون هذا النوع مع الأشخاص الذين لا يتوكلون على الله حق التوكل وتكون عباداتهم مذبذبة حيث أنهم قد يصلوا فرضا ويتركون فرضا أو ما شابه ذلك في باقي الفروض وهذا النوع من أنواع الربط يكون مؤثرا جدا في تلك الفئة من الناس.

ربط المودة: هناك بعض الحالات لا تشكو من انحلال القضيب ولكنها تشكو من القرب إلى الزوجة فبمجرد أن يقترب من زوجته يشعر بحرارة تخرج منها تجعله يفتر من ناحيتها ولا يطيق الجماع بل ولكنه يشعر أيضا بأن أكره ساعة عنده هي ساعة الجماع وفي بعض الحالات يكون هناك انحلال القضيب نتيجة لأن المرأة يخرج منها حرارة شديدة جدا كافية لحل القضيب والحقيقة هنا أن الزوجة تكون مصابة باللمس وهو نتيجة للعشق والعشق هو حب جن للمرأة وبالتالي يكره لها عملية الزواج فيحاول إنهاء العلاقة الزوجية بأمر الربط ونفور الزوج عن زوجته ولعل علاج تلك الحالة هو إخراج الجن من جسد المرأة بالطريقة العادية والربط هنا لا يكون بالعشق فقط وإنما يكون أيضا سحرا بالربط يعلق على الزوجة ومفعوله يسرى في الزوج.

ربط الإنجاب: وفيها يوضع جنبا وبالمعنى الصحيح يعتبر جن على أمهات الحيوانات المنوية ويحل تلك الحيوانات الخارجية فلا يخرج من القضيب إلا الماء السكري الذي يحمل الحيوانات المنوية ويكون بالطبع هذا الماء خاليا منها. وفي بعض الحالات لا يكون السحر مقيدا عليه جان وإنما يؤثر بنفسه على أمهات المنى وغالبا ما يكون هذا السحر من النوع المدفون أو المكتوب أو المشروب ولا يصلح مطلقا أن يكون من النوع المرشوش والعلاج يكون بإحدى الطريقتين:

أ — فك أوصال السحر

ب — علاج ما أتلفه السحر.

ربط المحب: وهو ما يتمثل في عمل النساء عملا أو حجابا وما شابه ذلك للزوج حتى يوفق الله بينهما ويمنع عنهما عين الناس والذي يوجد بداخل هذا الحجاب شركيات وكلمات ورموز وحروف لا يستطيع أحد أن يفهم معناها. وللأسف تؤمن النساء بتلك الخزعبلات التي أصبحت تعم

مصر بأكملها من الجهل الذي ساد بين النساء والضرر هنا هو السحر الذي صنعته المرأة بحجة المصالحة والهداية ولا نعلم أن أقوى أنواع السحر تقيد الرجل وتغزو جسده حتى تنخر قوته وتجعله لا يستطيع أن يجامعها.

ربط الجلب: وهذا النوع من جهل الرجال وسيرهم وراء الخزعبلات وذهابهم إلى العرافين والدجالين حتى يعملوا لهم عمل يحميهم من الربط وما شابه ذلك. وهو عبارة عن شبكة من الرصاص يضعها العراف للرجل.

خاتمة الدراسة

وفي نهاية الدراسة نستطيع أن نوجز ما يلي:

— إن السحر والربط والعمل تشكل جميعها نوعا من التفكير الذي يمكننا أن نسميه بنسق التفكير الغيبي. هذا النسق يرتبط إلى حد بعيد بالإنساق الأخرى التي ينقسم إليها البناء الاجتماعي للمجتمع كالنسق الديني والاقتصادي والسياسي. بمعنى الآخر يمكن القول إن السحر والممارسات السحرية معتقدات شعبية تنتظم في نسق من الفكر يرتبط بدوره ويتداخل مع سمات ثقافية أخرى تمتد لتشمل الثقافة بأثرها.

— إننا لا نستطيع أن نفصل مفاهيم السحر والربط والعمل بأي حال عن البناء الاجتماعي ومكوناته وما يحويه من علاقات وارتباطات، كالأسرة والاتجاهات الأسرية وكبار السن قوامة الرجل وسيطرته ووضع المرأة وتعدد الزوجات والمصاهرة والنسب والأخوة الأشقاء.

— إننا لا نستطيع استبعاد نسق التفكير الغيبي عن نسق القيم السائد والتقاليد والطرق الشعبية والأساطير والأغاني والأمثال الشعبية.

— إن التفكير الغيبي يقوى كلما زاد سوء الحظ وعدم التكيف أو التوافق وانتشار المرض، ويضعف في عكس هذه الحالات تماما، فالناس يلجؤون للقوى الخارقة ويقبلون على الممارسات السحرية لمواجهة المواقف التي لا يمكن لهم التحكم فيها كالربط والأحجبة للتفريق والتقريب في الممارسات الاجتماعية.

— لا يمكن بأية حال أن نفصل موضوعات السحر والربط والعمل عن المعتقدات الدينية فهذه كلها تلتقى كعناصر سلوكية تنظم في ممارسات شعائرية مقبولة اجتماعية أولئك الذين يعتقدون فيها.

— هناك ارتباط واضح بين اللجوء للسحر والتردد على السحرة وبين العلاقات الاجتماعية والقرابية والتي تشمل فشل علاقات الزواج ورأب الصدع في العلاقات الزوجية والرغبة في السيطرة على شرور الزوج ودعم العلاقات العاطفية أو الحيلولة دون اهتمامه بزوجة أخرى أو زرع الكراهية تجاهها. وتعدد الزوجات أيضا والغيرة والفشل في العلاقات العاطفية والرغبة في استعادة الزوج والتخلص من العقم ومحاولة إنجاب الذكور ونيل الحظوة لدى الأب مع وجود الأخوة الآخرين والتخلص من الأمراض العصبية والنفسية وصراع النساء والتنافس على حب الرجال.

— وحسد الأم لزوجة ابنها والصراع بينهما على حب الزوج والابن والصراع بين الأخ وأخيه والزوجة وزوجها والجار لجاره والزوجة لضرتها والفتاة لمحبوبها والعكس.

— ولا يقتصر ممارسة مهنة السحر على شخص واحد دون غيره أو على جنس دون الجنس الآخر فهذا العمل قد يقوم به كل من الرجل والمرأة على حد سواء.

— تقتصر ممارسة هذه المهنة على الفئة العمرية من كبار السن من ذوي الخبرة والمهارة والحنكة في هذا المجتمع إذ نادرا ما يكون الساحر شابا أو في مقتبل العمر.

— أثبتت الدراسة أن التعليم ليس شرطا أساسيا لممارسة مهنة السحر بل على العكس من ذلك تماما فإن معظم من امتهنوا هذه المهنة حصلوا على قدر بسيط من التعليم بل أن معظمهم لا يجيدون القراءة والكتابة أصلا وتنتشر الأمية بينهم.

— أثبتت الدراسة أن بعض من هؤلاء السحرة قد توارثوا هذه المهنة من الآباء والأجداد والبعض الآخر اكتسب هذه المهنة نتيجة عملهم كمساعدين لسحرة سابقين اعتزلوا العمل فحل هؤلاء المساعدون محلهم بحكم خبرتهم السابقة.

— يلجأ الناس إلى السحرة لعجزهم عن تحقيق أهدافهم في الحياة أو يأسا من الشفاء أو حلا لمشكلات قد لا يستطيع العلم الحديث مواجهتها والتغلب عليها.

— الإيمان بالغيب والمعتقدات الغيبية وبخاصة في المجتمعات التقليدية (قرى مجتمع البحث الريفية).

— يستخدم السحرة في أعمالهم الكتب الدينية والأحجبة كما يستشهدون بآيات من القرآن الكريم ومزامير داود حتى يقنعوا المترددين عليهم بجدية أعمالهم وهيبتهم.

— يستخدم السحرة في أعمالهم معدات ووسائل وطيور حية وأشياء أخرى كالشعر والأظافر والثياب والعظم وتراب المقابر والحبر والزيت والمسجلات والمؤثرات الصوتية والضوئية إلخ.

— أوضح البحث أن مزاولة المهنة تقتصر على أيام محددة وفي مواعيد محددة يعرفها المترددون على هذه الأماكن.

— يعتقد المترددون على أماكن السحرة أن كل شيء بأمر الله "القدرية" وأن العلاج مهما طال هو أفضل بكثير من التداوي عند الأطباء وأنه مهما طال العلاج فسوف يؤدي حتما إلى نتيجة مرضية.

— إن معظم المترددين على ممارس المهنة من النساء أكثر من الرجال ولأن المرأة بحكم طبيعتها مخلوق ضعيف والضعفاء يلجؤون إلى الغيبيات لأنهن لا حيلة لهن وخاصة في المجتمعات الريفية (قرى البحث).

— إن معظم المترددين على هؤلاء السحرة من المسلمين وفي سن الشباب وتنتشر الأمية بينهم بينما يقل عدد المتعلمين من هؤلاء المترددين.

— وأوضح البحث أن نسبة المترددين على هؤلاء السحرة من المتزوجين كبيرة بالمقارنة بنسبة غير المتزوجين فيكون الذهاب إلى ممارس مهنة السحر للرغبة في التغلب على القلق والحيرة إذاء أي موقف معين أو وضع ما يتسبب في ذلك.

المصادر

أبو الفداء محمد عزت محمد عارف. ١٩٩٤. السحر كيف نداوي ونتقي المس والحسد. الطبعة الثالثة. مؤسسة بدران للطباعة والنشر.

أحمد، غريب سيد وعبد الباسط عبد المعطي وعلي جلبى. ١٩٨٤. المدخل في علم اجتماع المعاصر. الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

اسماعيل، فاروق مصطفى. ١٩٨٥. الوثنية مفاهيم وممارسات. الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

اسماعيل، فاروق مصطفى. د. ت. المعتقدات الشعبية. دراسة أنثروبولوجية في السحر والعين الشريرة. الدوحة، قطر: دار المعرفة الجامعية.

بوزنر، جورج وآخرون. ١٩٩٦. معجم الحضارة المصرية القديمة (ترجمة أمين سلامة). العبعة الثانية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

البوني، أبو العباس أحمد بن علي. د. ت. منبع أصول الحكمة. بيروت: المكتبة الثقافية.

الجوهري، محمد. ١٩٩٠. علم الفولكلور. دراسة المعتقدات الشعبية. الجزء الثانى. الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

سليم، شاكر مصطفى. ١٩٨١. قاموس الأنثروبولوجيا. الكويت.

الطوخي، عبد الفتاح السيد. ١٩٩١. تسخير الشياطين في وصال العاشقين. الطبعة الأولى. بيروت: المكتبة الثقافية.
الطوخي، عبد الفتاح السيد. ١٩٩٢. السحر العظيم. الجزء الثاني: مزامير داود. بيروت: المكتبة التقافية.
فريزر، جيمس. الغصن الذهبي. دراسة في السحر والدين (ترجمة أحمد أبو زيد). الجزء الأول. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.
لين، ادوارد وليم. ١٩٧٥. المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم (ترجمة عدلي طاهر نور) الطبعة الثانية. القاهرة: دار النشر للجامعات المصرية.
مدكور، ابراهيم. ١٩٧٥. معجم العلوم الاجتماعية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
مغاوري، محمد عبده. ١٩٩٥. أفعال شيطانية في أول أيام الزوجية. الطبعة الأولى. المنصورة: مكتبة الإيمان.
مقار، شفيق. ١٩٩٠. السحر في التوراة والعهد القديم. لندن: دار رياض الريس.
نخبة من الأساتذة. د. ت. مصطلحات العلوم الاجتماعية. الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

Barnouw, Victor. 1982. *An Introduction to Anthropology.* Homewood, Ill.: Dorsey Press.
Bidney, David. 1953. *Theoretical Anthropology.* New York: Columbia University Press.
Levy-Bruhl, Lucien. 1927. *L'âme primitive.* Paris: F. Alcan.
Nanda, Serena. 1984. *Cultural Anthropology.* Belmont, Calif.: Wadsworth Pub.
Plog, Fred & Daniel G. Bates. 1976. *Anthropology: decisions, adaptation, and evolution.* New York: Knopf.